الانتقاد الادبي

أقاعدة لغوية هو أم عاطفة ؟

ليوسف البعيني

في مناظرة أدبية عنيفة تضرّمت نارها بين الكاتبين الكبيرين اناتول فرانس وفرديناند روتيير حدّد اناتول — ذلك الفنّان الساخر المتهكّم — ماهيّة الانتقاد بهذه السطور الصاحية الجزلة فقال :

« لا يمكن أن يكون فنّ الأدب غير عاطفي ، وكذلك نقده ... لانّ الفنّ ذاته عاطفة . وكذبة هم أولئك الناقدون من الادباء الذين يزعمون أنهم قادرون على انتقاد الأدب بدون عواطفهم . والحقيقة العامة عندي هي انه ليس أسوأ من ناقد يتخذ مقاييس الألفاظ والاوزان لنقد قطعة فنية أفرغ في روعها صاحبها خلاصة روحه ، لان المشاكل الخفية في الأدب وفي نقده لا يحلّها علم الصرف والنحو ، بل يحوجها تلك العاطفة العلوية التي لا تقيدها فواصل وحدود ، ولا تنيها أبعاد ونجوم »

وتحامل مرّة نفرٌ من الادعياء المغرورين على الشاعر العبقري الساحر توماس هاردي ، فانتصر له الناقد المبدع — جون رسكن — وكتب في ذلك مقالاً ضافي الذيول لا ازال اذكر منه هذه الجمل :

« إنّ غاية النقد الحيّ الرفيع لا تحصر في حبك الجمل الصحيحة وترديد الالفاظ القاموسية الخالية من الخطأ النحوي ، انما تحصر في البحث عن كل جميل ومؤثر في الحياة ، وعن كل حبّ والناس في أسرارها واحلامها »

وقال سانت بوف : « الناقد النابغ هو ذلك الذي يزيد في ثروة العالم الفكرية ، ويأخذ بها خطوة في نواحي التقدّم والفلاح ، ثم يكتشف حقيقة أخلاقية رائعة ، ويخترق إلى عاطفة كامنة ليصبّ كلّ ذلك في قالب رصين عميق في تفكيره ، جميل في اسلوبه »

وقال بودلير : « إنّ أروعَ نقد هو النقدُ الشعريُّ البهج . لا ذلك النقد البارد الذي يسلك علم الجبر في حلّ الامور الرياضية . وعلى الناقد أن يكون رشيق العاطفة ، رقيق الاحساس . ومقياسهُ هو الطبيعة بأسرها ، بإنسانها وحيوانها . ثم عليه أن يتأثر لينتقد بإنسان ، لانّ كونك ناقداً لا ينفي كونك إنساناً . والانفعال يقرّب بين الامزجة المتشابهة ويسمو بالمدارك الى افق جديد »

وقال هنريك إبْسن : « حق الناقد في الحياة أن ينتقد الحياة بلغتها الشعرية الخالدة ، لا بكلام القاموس وأوضاعه المتهرئة . . . وهكذا فيبقيها خمرةً عذبة لأبناء الليالي المستمدّين من المثل الاعلى أحلام قلوبهم وتصاوير أرواحهم »

وقال استيفان زِفيك : « الناقد الجبّار هو مخلوقٌ غريب يبصر بعين عاطفته الخفية غير ما تبصره أعينُ الناس . هو شاعر والهٌ معاً . . ينظر الى الوادي العميق وما في عُمقه من رهبة وخشوع ، ويشاهد الخريف وما في تحوله من حزن وكآبة ، ويرى الليل وما في ظلامه من أسرار . . فيكوّن من كلّ ذلك رسماً حانياً بألوانه ، فاتناً باشراقه »

***

فالانتقاد اذاً ليس معرفة مواضع الخطأ في ما تقرأهُ وأماكن التخالف في ما تراه ، بل هو العاطفة السموية الجبارة التي تتغلغل بها الى اعماق المعاني ، فتلمس نفسية الشاعر اذا كتب ، وتحس روح الكاتب اذا حلّق وأجاد . ولولا ذلك لكان كلُّ دعيٍّ مأفون عليماً بأسرار النقد فيعيب على العبقريين رسومهم وتعابيرهم ، وعلى الملهمين فنهم وإبداعهم

إنّ الانتقاد هو قوّة الهيّة غير ملموسة توشح اجنحة ابناء الفن المتعبدين للمثل الاعلى في هيكل الحياة . اما هؤلاء المنطرحون على الادب انطراحَ المرأة الدميمة الشوهاء على فراش الجمال ، فشأنهم في تفهم نبضات القلوب وهمسات الارواح كشأن الوادي يسمع عويل العاصفة فلا يفقه معناه ، ولا يتدبر أنينه وبلواه

لقد كان الانتقاد العاطفي مجهولاً من لغتنا العربية في زمن انحطاط الادب وتأخره حتى جاء المجددون فأشرعوا هذا الباب على مصراعيه وخيراً فعلوا . لان النقد المجرد من تعاليم الماحكة القديمة يعتقُ الفكر من قيود الالفاظ والاوزان ، بل يسكب في عروقه دم الحياة . والفكر السامي تذويه القواعد اللغوية وتميته الاحكام العروضية ، فهو كالجمرة المتقدة اذا طمرت بالرماد انطفأت وتلاشت فلا تعود تشيع في النفس حرارة ، وفي الجنان ارتعاشاً وهيوباً

بيد ان المتمسكين بذيول القديم يأنفون من الاقرار بهذه الحقيقة وجمالها ، ويخيرون الموت على مماشاة الذوق العصري الذي يستضيئون شمعه الوهاجة . فاذا كتبَ كاتبٌ حديث بغير

الطريقة التي كتب بها ابن المقفع كتابه كليلة ودمنة ، حسبوا اسلوبه مبتذلاً ، ولماذا ؟ لانهُ لا يتسق مع اساليب قدماء المنشئين كالحريري والثعالبي والزمخشري وغيرهم . وان هم ذهبوا في فهم الادب ذلك المذهب الماجن المرضوض ، فلان النقد عندهم لايخرج عن كونه معرفة بأصول القاموس وعلوم اللغة . اما العاطفة ، نعم العاطفة المجنحة التي تغوص بك الى اعمق دركات الفكر والوجدان ، فلا شأن لها في مقاييسهم ولا مزية

ولكن ليت شعري هل من اتخذ عوور القاعدة اللفظية قانوناً له يقوى على اختراق معالم الشعور والوجدان ؟ والشعور لا حدود له ولا روابط . فالصور والتشابيه التي يرسمها الكاتب او الشاعر عن القمر وهو يغرس اشعته الفضية في تربة الروض الساجي الجلل ، والصحراء المتخيلة بقية صافية الاديم قلما تتلبد بالغيوم او تدوي بالرعود ، والرسم المتصارعة بين خطوطه اشباح الحياة واحلام الموت ، والغراب الاسحم الكالح الوجه ينعب في ليلة حالكة الجلباب منذراً بانقضاء اوقات اللذة والغرام ، واعشاش الطيور تستيقظ متناغمة فرحة عند مجيء الصباح . نعم ان كل هذه الصور والتعابير ما يفهمها ويتبصرها الا الناقد الجبار الذي يضمُّ بين ضلوعه عاطفة شعريَّة حنونة تتحرَّك لأخفِّ النسمات هبوباً ، وألطف الخطرات والتراكيب دقةً وعذوبة ! !

***

إنَّ أفقَ الانتقادِ العاطفي هو أفسح آفاق الانشاء في دولة الادب ، يستطيع أن يحوِّم فيهِ كلُّ من أحبَّ ومن أراد . ولكن ليس كلُّ كاتبٍ يجيدُ النقد عندما ينتقد اذا كان محروماً من ذلك السائل العجيب الذي يدعونهُ شعوراً ورقةً وإحساساً

كلَّما نسمع حشرجة الجداول وحفيف الاوراق في هدأة الليل ، نعلم ان الجداول تعضُّها الصخور والمنحدرات فتحدث شكوى وبكاءً ، وان الاغصان عندما يلامسها نسيم الاودية تتحرَّك مصفقة متمايلة . . . ولكن الذي يحتوي بين طيَّات صدره عاطفة صاحية شفافة يفسر حشرجة الجداول بتألم محتضر يلفظ انفاسه الاخيرة ، ويعلِّل حفيف الاوراق بنبضات فؤادٍ تتنازعهُ الميول والحنين والتذكارات

والأديب كالجدول او كالغصن ، تتألم روحهُ ونوازعه خافقةً في مسامع الحياة التي لا ترحم ولا تلين ، فاذا جاء من يقيس هذه النفثات بالارقام الحسابية والموازين النحوية ، يخطىء الى الفنِّ والابداع . وذلك لان الفكر غير محسوس وغير منظور ؛ وحتى يفهمه الناقد يجب ان يستعمل مقياس عواطفه ومشاعره وإحساساته

وعلى الناقد أن يكون عليماً بكلِّ امور الفنِّ الذي ينقدهُ اذا أحبَّ ان يكون مصيباً في

انتقاده . وأنا لا اقصد من هذا ان على ناقد الشعر ان يكون وزاناً خبيراً ، او على ناقد الرواية ان يكون روائياً مجيداً ، لا ما هذا الذي أقصده . بل عليه ان يدرك العيب في ما يقرأه بعيني وجهه كلمات مكتوبة وبعيني عاطفته الخفية آيات مرسومة بالدم والدموع

ومع كل الشروط الواجبة على الناقد ان يكون ناقداً منظوراً اليه ، أجد ان العاطفة هي المحور الاول في فن النقد . ولا شأن هنا للنقد اللغوي المبني على الارقام والتراريط

فان كثيرين من حملة الاقلام — وخصوصاً في العالم العربي — يتناولون قصيدة الشاعر او مقالة الكاتب . ولا يقصدون من نقدهم الا ان يروا مواضع الخطأ النحوي في هذه الجملة او في ذلك البيت كأن النقد الرفيع غايته القشور لا اللباب ، وهكذا يجرمون الى الفن والى الكاتب والشاعر المتقدمين بظلم واعتداء ، متناسين ان أقدس عمل في قانون الناقد ان يتفحص المعاني قبل كل شيء ، لا ان — يكبس بيديه ورجليه — على الالفاظ ليستخرج منها عصيراً ونوراً وحياة

***

فالانتقاد الادبي اذاً عاطفة لا قاعدة لغوية كما يزعم الحافظون . ولولا ان جبابرة التاريخ كشكسبير وهيغو وبيرون وجبران مثلاً يؤثرون القواعد اللغوية على العواطف الذاتية لما استطاع العالم الفكري أن يحفل بتلك الروائع التي يبلى الدهر ولا تبلى جدتها

إن المنتقد الذي يعيب على الكاتب والشاعر هفواته القاموسية ، يبرهن على ضعف ملكة النقد فيه وعلى جفاف تروته الادبية ، والادب الخلاق المستجد لا يبلغ القمة ما لم يستر هذا الفن . فالشاعر اللبناني الخالد جبران خليل جبران — وهو رب المجددين في الادب العربي واكبر من تعبد للسحر والجمال — لو لم يستوعب خلجات فؤاده ويرسمها على جدار الحياة رائعة فتانة ، ما عانقت العربية تلك التماثيل الحية في الاجنحة المتكسرة وغيرها !

***

وغاية النقد العالي الصريح هي تلمس الحياة في جميع حالاتها . فجبران ذاته هو امير الناقدين وانت عندما تصغي الى رنات روحه تطل عليك من كوى الغيب كواعب سحرية مجهولة يشجوك منها بريق عيونها وهفهفة اردانها . . . وذلك لان جبران — ذلك الناقد الجبار — عرف ان ينتقد الحياة ويستقطر الالهام من دموع ليلها ، وندى صباحها

اما هؤلاء الذين ينتقدون وعكازهم القواعد النحوية وحسب ؛ فليسوا من ابناء الفن وان أصروا على ان يكونوا منه . . . فالانتقاد اللغوي المتموسة ريشته في محبرة الحقيقة له عاطفته المجنحة ، ولغته المختلفة كثيراً عن لغات ضفادع المستنقعات وأنصاب المقابر ! !